تأثير الحضارة العربيّة في الحضارة الغربيّة

د. مصطفى الرافعي
الجامعة اللبنانية

تمهيد :

الحضارة تجسيد للنشاط العقلي عند الانسان ، وتاريخ الحضارة سجل لتطور هذا العقل ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة، من سياسية واجتماعية واقتصادية وادارية وحربية وعمرانية . ودراسة هذا التاريخ تتناول الى جانب ذلك وسائل انتاج الانسان ومستوى معيشته وفنونه الجميلة ، ومعتقداته الدينية وأساطيره وعلومه وآدابه ووسائل كفاحه المستمر مع الطبيعة من أجل البقاء .

وذلك يعني ان هذا التاريخ لم يعد كما عرفه المؤرخ الانكليزي « ادوارد فريمان » بقوله :

« انه تاريخ السياسة الماضية » بل ان التاريخ بمجمله اضحى ، بحسب النظرة التطورية الحديثة ، هو بالذات تاريخ الحضارة .

والحضارة فعل نام متحرك كالكائن الحي ، تولد ثم تحبو طفلة طرية العود ، حتى اذا أشتد ساقاها واينعت ، بدأ عهدها المزدهر أو شبابها المعطي ، وتكون في هذا الطور في ابان خصبها . فاذا استنفدت طاقتها المخزونة بدأت تنحدر نحو الهرم والشيخوخة ، وبدأ عطاؤها يشح وينضب ، الى أن تنقرض .

في كل حضارة بلا شك بذرة بقاء ، هي الارث الحضاري الذي تتركه وراءها ، وهذا الارث مشاع كالهواء ، يمكن لكل أمة ان تفيد منه ، كما يمكن لكل حضارة نامية ان تتفاعل معه وتجعله لبنة في بنيانها .

ولعله من حسن حظ الانسانية ان يكون الامر كذلك ، لان الحضارة المنغلقة على ذاتها لا يمكن ان تعطي الانسانية شيئا ، فهي مبتلاة بالعقم لان جوهرها يفتقر الى بذرة البقاء .

والتفاعل بين الحضارات أمر لا مفر منه ، فهو مظهر من مظاهر عدوى التقاليد ، وانفتاح كل حضارة على التاريخ . وأشد مايكون هذا التفاعل حين تكون الحضارة الناشئة في دور الاقتباس والتلقي، فاذا ما تجاوزته الى دور الهضم والتمثيل ،

استحال ما اخذته الى دم قوي نشيط يساعدها على بدء عملية الخلق والابداع ، هذه العملية التي تعطيها طابعها الخاص وشخصيتها المميزة ، ككائن مستقل واضح الخصائص .

والحضارة العربية واحدة من تلك الحضارات المنفتحة على التاريخ . انها من الحضارات الشاملة التي تأثرت بها شعوب مختلفة ، ولعبت دورها المجيد في سير الحضارة البشرية ، وهي ، عدا عن كونها امتدادا لحضارة اليونان والرومان، ذات شخصية متميزة ، مدت ظلها على الشرقين ، الادنى والاوسط ، وتجاوزتهما الى بعض أوروبا، وكان لها أثرها الفعال في بعث النهضة الاوروبية الحديثة .

ولو لم يكن للحضارة العربية الا دور الوسيط الذي حمل الى الغرب انفس ما في التراثين اليوناني والروماني ، لكفاها ذلك فخرا ، ولجنبها تهمة الشح في العطاء،التي يحاول بعض المتجنين على التاريخ الصاقها بها .

قال غوستاف لوبون : « لقد انشأ العرب بسرعة ، حضارة جديدة ، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا بحسن سياستهم من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وثقافتهم ، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود الذين رضوا أيضا بمعتقدات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم » ..

وقال : « ان الامم التي غابت عن التاريخ لم تترك غير اطلا لوصارت اديانها ولغاتها وفنونها ذكريات ، أما العرب فما زالت عناصر حضارتهم باقية حية » .

ويقول صاحب كتاب « اعتذار الى محمد والاسلام » : يجب ان نعترف بان علوم الطبيعة والفلك والفلسفةوالرياضيات التي انعشت اوروبا منذ القرن العاصر مقتبسة عن القرآن .

ولعل هذا الباحث لم يخطيء الصواب اذا علمنا ان الله قد افتتح هذا القرآن الكريم الذي هو كتاب العرب الاول والذي انزله على خاتم انبيائه ورسله محمد ﷺ بكلمة « اقرأ » وان أول قسم أقسمه الله كان « بالقلم » « ن والقلم وما يسطرون » .

وان المتتبع لآيات القرآن يجد انها حوت ما يربو على ٧٥٠ آية شملت معظم العلوم المعروفة في زماننا .

فنجد علم القانون في قوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب» . ونجد علم التجارة في قوله: « واحل الله البيع وحرم الربا » ونجد فنون صناعة الكتابة في قوله : «ن.والقلم ومايسطرون» ونجد علم البيان في قوله : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » . ونجد النجارة في قوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . ونجد الغوص واستخراج المعادن في قوله : «وتستخرجون منه حلية تلبسونها » . ونجد الملاحة في قوله : « وترى الفلك مواخر فيه » . وعلم الزراعة في قوله : «افرأيتم ما تحرثون ؟ » . وعلم الاختراع في قوله : « علم الانسان مالم يعلم » وعلم الفلك في قوله : « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » . وعلم الجيش والجندية في قوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وفن التجميل في قوله :

خذوا زينتكم عند كل مسجد» . وصناعة الزجاج
ي قوله « قال انه صرح ممرد من قوارير » .
صناعة الفخار في قوله : « فاوقد لي يا هامان
لى الطين » . وعلم النفس في قوله : « وفي
نفسكم أفلا تبصرون » . وعلم التاريخ في قوله :
« ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك » . وعلم
لآثار في قوله : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا
ي الارض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين » .

الفصاح :

لا شك ان الباحث المنصف في تاريخ الامم ، ونهضات الشعوب ، يقف حيال تاريخ الامة لعربية ، ونهضتها موقف المتأمل الخاشع ، لما وصلت اليه هذه الامة ، في حضارتها الزاهرة ، ومدنيتها العامرة ، التي اظلت الانسانية بظلالها لوارفة ، ونعمت فيها بالحرية والكرامة ، والامن والسلام ، من تعاليم رشيدة ، وسياسة حكيمة ، وعناية بالعلوم والمعارف على اختلافها .

ذلك لان العرب هم الذين اسهموا بأموالهم وعقولهم في البحث والتحصيل ، حتى اظهروا خافيها ، وذللوا الصعب منها ، وأصبحت - في عهودهم المزدهرة - دولة قائمة للعلوم والمعارف - ومن هنا كانوا زينة الدنيا ومعجزة العالمين - منهم الاساتذة الاولون الذين تتلمذ على أيديهم علماء الغرب ، وحج الى معاهدهم طلاب الفلسفة ، وعشاق الحكمة . يدل على ذلك ، هذه الآثار الشاهدة بمآثرهم الناطقة بحضارتهم ، في مصر والشام والاندلس وايران وما وراء النهرين وافغانستان وطبرستان ، وغيرها من البلاد .

يقول « روبرتسون » : في الزمن الذي كان فيه العرب يبحثون العلوم المختلفة ، ويتدارسونها ، وينشرونها على الناس ، كان أهل أوروبا في جهل مطبق ، وسبات عميق ، ولم يستفيقوا الا بعد الحروب الصليبية ، لانهم حينئذ اختلطوا بالعرب والمسلمين ، فوجدوا لديهم علوما لم يعرفوها الا بهم ، وحضارة اقتبسوها منهم وادخلوها الى بلادهم .

ويقول «داريو» أحد علماء امريكا المشهورين « لقد تأخذنا الدهشة اذا نظرنا في كتب العرب ، فنجد فيها اراء نعتقد انها لم تولد في زمننا هذا ، كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال انواعها ، فان هذا العلم علمه العرب قديما في مدارسهم ، وذهبوا فيه الى أبعد مما ذهبنا اليه » .

ويقول « توماس كارليل » المستشرق الانجليزي لقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور،واحيا به أمة خاملة ، لا يسمع لها صوت ، ولا تحس منها حركة ، منذ بدأ العالم فأرسل الله نبيا بكلمة من لدنه،ورسالة من قبله، فاذا الخمول نباهة ، والغموض قد استحال شهرة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا ، وسع نوره الانحاء ، وعم ضوؤه الارجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والشرق بالغرب، وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل في الهند ، ورجل في الاندلس،واشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمروءة والنجدة ، ورونق الحياة والهدى على نصف المعمورة .

والحق ما قاله هذا المستشرق المنصف ، وهو

ان العرب لم يبلغوا ذلك الا بالاسلام وتعاليمه التي كان بها اتباعه خير أمة أخرجت للناس ، تقيم للعدالة ميزانها ، وترفع للحق مناره ، وتغرس للدنيا دولة تمتد شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، حيث لا حروب ولا قلاقل ، ولا ظلم ولا تناحر وانما هو الامن والسلام،والحياة والاستقرار والتعارف والرحمة (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثىوجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) .

وفي دراستنا هذه ، قبس من هذا النور ، وضياء من هذا الوهج اللامع ، الذي وهب الدنيا القوة والعافية .

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية :

لقد عني المنصفون من مؤرخي الغرب وباحثيه بتبيان الاثر العظيم الذي تركته الحضارة العربية في الحضارة الاوروبية ، وبما ان اثبات جميع ما قالوه في هذا الموضوع غير ممكن ، فاننا سنكتفي هنا بتلخيص ما ذكره العلامة «غوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » حول هذه النقطة .

يرى العلامة المنصف ان الحروب الصليبية لم تكن السبب الذي ادى الى دخول العلوم الى أوروبا ، بل ان هذه العلوم انما دخلت عن طريق سبانية وصقلية وايطالية . ففي عام ١٤٣٠ م نشىء في طليطلة ، وبرعاية رئيس اساقفتها « ريمون » ، مكتب للترجمة يعنى بنقل أهم كتب العرب الى اللاتينية . ولقد نجح هذا المكتب في مهمته ، ولم يقتصر النقل على مؤلفات علماء العرب « كالرازي » و « أبي القاسم » و « ابن سينا » و « ابن رشد » بل تعداها الى كتب اليونان التي ترجمتها العرب ككتب جالينوس وابقراط وافلاطون وارسطو واقليدس وارخميدس وبطليموس .

وقد روى الدكتور (لوكلير) في كتابه «تاريخ الطب العربي » ان ما ترجم من كتب العرب الى اللاتينية يتجاوز الثلاثمائة كتاب ، وان القرون الوسطى لم تعرف كتب قدماء اليونان الا من ترجماتها العربية ، ولم يكن يقدر للغرب لولا العرب ـ ان يطلع على كتاب « ابولونيوس » في المخروطات ، وكتات جالينوس في الامراض السارية ، وكتاب ارسطو في الحجارة الخ ..

وقال مسيو ليبري : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة اوروبا الحديثة عدة قرون » .

وعلى كتب العرب وحدها اعتمد علماء الغرب بعد القرن الخامس عشر كروجر بيكن وليونارد البيزي ، وارنود الفيلنوفي ، وسان توما ، والبرت الكبير . وهذان الاخيران مدينان بكل قيمتهما العلمية لابن سينا وابن رشد ، وقد اوضح هذه الحقيقة واعلنها مسيورينان حين قال :

« ان البرت الكبير مدين لابن سينا ، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد » .

ومن الثابت ان جامعات اوروبة ظلت أكثر من ستة قرون تعتدي بكتب العرب العلمية التي ظلت وحدها مادة التدريس فيها ، كما ان الطب الغربي ظل حتى أواخر القرن الماضي عالة على ابن سينا .

وفي فن العمارة تأثر الغربيون بالعرب الى حد بعيد ، وما تزال البيوت في اشبيلية وقرطبة تبنى

على الطراز العربي ، ولا يزال الرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية ٠

بـدء التدوين :

التدوين بمعنى تصنيف الكتب ، لم يظهر لا بعد العهد الاسلامي الاول ، لان المسلمين كانوا حتى اواخر العهد الاموي يعتمدون في نقل العلم على الحفظ والذاكـرة ، ولم يكن عندهم كتـاب مدون سوى القرآن ٠ ويرجع السبب في ذلـك الى عوامل مختلفة ، فمن الرواة من يزعم ان بعض الخلفاء لجأوا الى منع التدوين خشية ان يصرف الناس نشاطهم اليه ، ومنهم من يعلل ذلك بان المسلمين كانوا يعتقدون في تلك المرحلة من حياتهم الفكرية ان العلوم والكتب المدونة لا لزوم لها مع وجـود القـرآن ، في حين يرى آخـرون ان حركـة التدوين لم تنشط لان المسلمين كانوا لا يزالـون قريبين من عهد النبوة ، وكانت علومهم ، مازالت ضعيفة لا تخرج عن نطاق القرآن وتفسيره ورواية الحديث ٠

على انه ما كادت تستقر احوال المسلمين في البلاد المفتوحة ، حتى تغير الحال وانصرفوا الى التدوين في العصر العباسي لعلومهم ولغتهم ٠

وقـد اختلف في أول مـن الف الكتب ودون الاخبار ، غير ان ابن النديم يشير الى ان عبيدا الجرهمي الذي عاش في القرن الاول الهجري هو أول من دون اخبـار ملوك العرب والعجـم ، وان مجاهد بن جبير هو أول من دون كتابا في التفسير، ووهب بن حنين ١١٢ هـ ، هو أول من كتب التاريخ والمغازي ٠

ولا شك ان الغاية من تدوين الحديث كانت حفظه من الدس ، بعد ان شاع الوضـع وكثرت الاحاديث الموضوعـة ، التي لجـأ الى وضعهـا اصحاب المذاهب السياسية ليدعموا بها اراءهم في خلافاتهم الحزبية مع خصومهم ٠

وحركة التدوين المنتظم للحديث التي ازدهرت في القرن الثالث للهجـرة ، تمتاز عن تلـك التي نشأت في القرن الثاني بان تدوين الحديث فيها كان مقصورا لذاته ، في حين أن تدوين الحديث في الاول كان يجري عرضا اثناء تدوين كتب الفقه أي ـ ان الفقه هو الذي كان مقصودا منها ـ لا الحديث ٠

أما فيما يتعلق بالفقه ، فلم يطرأ عليه في العهـد الامـوي الا تطـور طفيف ، فالمعروف ان الخلفاء الراشدين يرجعون في أحكامهم الى القرآن والسـنة ويجتهـدون بآرائهـم ، ويلجـأون الى القياس ٠ فلما انتشر كبار الصحابة في البلدان التف حولهم طلاب العلم ، يستمعون الى آرائهم ويحفظون عنهم ، فنشأت عن ذلك مدارس فقهية، تمخضت في أواخـر القـرن الاول عـن مدرسـتين مشهورتين ، مدرسة الحجاز ومدرسـة العراق ، وتتميز الاولى بتقيـد أصحابهـا بالحديث دون الرجوع الى الرأي الا نادرا ، في حين تتميز الثانية باستعمال الرأي أي الاجتهاد لحل كثير من المشاكل دون الرجوع الى الحديث الا قليلا ٠

أما العلوم الانسانية والاجتماعية فلم تتطور في العصر الاموي ولم تتغير كثيرا عما كانت عليه في العصر السالف ٠ والتطور القليل الذي سجلته انما كان بتأثير القرآن والحديث ، اللذين وحـدا اللهجـات وهذبا الفـاظ العربية وادخـلا عليهـا مصطلحات جديدة٠ وبتأثير الفتوحات والتنظيمات

الادارية التي استلزمت ادخال كلمات جديدة استعربت واستعملت بدافع الحاجة اليها . ولم تزدهر هذه العلوم - وخاصة الاجتماعية منها كالتاريخ والجغرافيا وعلوم الاوائل كالطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والمنطق- الا في العصر العباسي ، عندما بلغت الحركة الفكرية عصرها الذهبي .

أما الشعر والنثر فقد تطور تطورا ملموسا ، فكانا صورة لتطور المجتمع الاموي ، هذا المجتمع الذي نشطت فيه العصبيات، وشجرت الاختلافات ونشأت الفرق وتضاربت السياسات .

فالشعر أصبح سلاحا سياسيا ، ووسيلة من وسائل الدعاية . وقد غالى الخلفاء والامراء من أجل ذلك، فيتشجيع الشعر والشعراء لاستخدامهم في أغراضهم السياسية ، وتأييد وجهات نظرهم وحزبياتهم . ورجعة واحدة الى تاريخ الادب العربي ، تبين لنا اثر الشعراء الثلاثة الامويين (الاخطل وجرير والفرزدق) في التوجيه السياسي آنذاك ، وفي توجيه الحرب الكلامية التي كانوا يعملون على اذكائهما .

غير اننا اذا التفتنا الى الحجاز نتفقد حالة الشعر فيه ، واثر السياسة في هذا الشعر لوجدنا ان وضعه في هذا القطر يختلف تماما عنه في الاقطار الاخرى ، فالامويون الذين نقلوا مركز الحياة السياسية من مكة والمدينة الى دمشق ، كان همهم الوحيد اقصاء أهل الحجاز عن السياسة وصرف انظار ابناء الاشراف والمهاجرين والانصار والغزاة عنها ، وذلك خوفا على نفوذهم وسلطانهم .

وعملا بهذه السياسة اتاحوا للحجاز حياة مترفة هادئة ، فاذا هذه الحياة لا تلبث ان تعطي ثمارها ، ومن ثمارها ذلك الشعر الغزلي الرقيق الذي تحول فيما بعد الى مجون ، ومن أشهر شعراء هذا العصر : عمر بن أبي ربيعة القرشي والاحوص الانصاري .

أما الغزل الشريف البعيد عن الفحش ، فقد نما في بادية الحجاز ، ونشأ في بني عذرة وخزاعة، ومثله ، في عصر بني أمية ، جميل بثينة وكثير عزة .

وأما طابع هذا الشعر على نوعيه : البريء والماجن ، فهو طابع الشعر الجاهلي وشعر صدر الاسلام مع فارق واحد ، هو عذوبة في الشعر الاموي ، ورقة لم تتوفر لشعر العصور السابقة ، وألفاظ واشتقاقات لم تعرف من قبل ، وتجديد في بعض الصور الشعرية اقتضته طبيعة الحياة ، ومتطلبات الثقافة ، وحيوية المجتمع .

واذا القينا نظرة على حالة النثر في العهد الاموي ، فاننا نلاحظ تطورا ملموسا ، ابرزته احداث الجزيرة العربية ، وافضت اليه فتوحات المسلمين وانصرافهم الى دراسة القرآن وتأثرهم به ، واهتمامهم بحفظ الاحاديث ، وتنافسهم في احياء تراث الجاهلية ، وقد ظهر هذا التنافس في العصر الاموي بعد ان بعثت العصبية القبلية ، التي خنقها العهد الاسلامي الاول وقضى عليها .

كانت الكتابة في العصور السابقة تتميز بالبساطة والايجاز ، فتنوعت أساليبها في عصر بني أمية ، وتعددت طرقها وأغراضها ، وتأنقت الفاظها ورقت ، حتى اصبحت فنا خاصا ، له نظمه وقواعده . ونشأت على أثر ذلك دواوين الكتاب . واشتهر من ناثري ذلك العصر ، عبد

الحميد الكاتب (١٣٤ هـ) وعبد الله بن المقفع (١٤٣هـ) .

وكما كان الشعر سلاحا ماضيا تستخدمه الاحزاب والعصبيات في صراعها السياسي ، فان النثر استخدم عن طريق الخطابة للدعايات السياسية ، واعتمد وسيلة للتفاخر والتفاضل في الصراع القائم بين الشيعة والزبيرية والخوارج والامويين ، واليمنية والعرب والشعوبيين ، وعلى الاخص الفرس .

واذا استعرضنا خطباء ذلك العصر ، لعددنا في طليعتهم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، والحسين وابن الزبير وابن الاشعث والمهلب والحجاج وخالد القسري، والمختار الثقفي، وقتيبة بن مسلم ، وسحبان بن وائل .

ثم في العصر العباسي أصبحت اللغة العربية، نظرا للتطور الذي أصاب المجتمع ، بحاجة الى تطوير وتهذيب ، وتوسيع ، وضبط ، خصوصا بعد ان أستقر العرب في الاقطار التي افتتحوها ، وخالطوا الاعاجم واحتكوا بهم ، وأصبح هؤلاء يشكلون مجموعة لا بأس بها من سكان البلاد .

كانت اللغة العربية في هذا الدور شائعة في البلاد الفارسية ، وظلت تنتشر في هذه البلاد وتمتد ، فكان من أثر ذلك ان تأثرت بالمفردات والتراكيب الاعجمية ولجأ العرب الى اشتقاقات جديدة استدعتها التطورات الجديدة والحاجات الجديدة .

وقد نبغ في علوم اللغة والنحو ، الخليل بن أحمد الذي هذب صناعة النحو ونظمها . وسيبويه الذي أخذ عن الخليل ، وكمل ما لم يكمله سلفه ، فوضع مؤلفه المشهور « الكتاب » .

وقد ازدهرت علوم اللغة ، وبخاصة النحو في مدينة البصرة ، ثم انتقلت زعامة هذه العلوم الى الكوفة ، فظهر الكسائي في القرن الثالث .

وكانت حركة الأبداع في النحو قد ركدت ، وأصبح الاهتمام مقصورا على الشرح والتلخيص.

والجدير بالذكر ان الخليل بن أحمد هو أول من وضع المعاجم ، اذ وضع معجمه المعروف (كتاب العين) وهذا المعجم هو أول معجم في العربية .ولم تظهر بعد هذا المعجم معاجم جديدة الا بعد مدة قرن . اذ ألف أبو بكر بن دريد معجم « الجمهرة في اللغة » .

وكان من الطبيعي ان تزحف العجمة ، وما يذهبها من ركاكة واضطراب بلاغي الى الشعر ، فأخذ الشعراء عن الاوزان العربية ، التي وعتها الاذن العربية ، فهب بعض رجال اللغة وأولهم الخليل لحماية الاوزان القديمة ، وضبطها ، فكان ان وفق الى استخراجها وحصرها وجعلها ١٥ وزنا، ثم جاء الاخفش فتدارك النقص وزاد بحرا جديدا وسماه « المتدارك » فأضحت بحور الشعر ستة عشر بحرا .

وقد ادرك رجال اللغة مخاطر الركاكة التي طرأت على الاسلوب العربي نتيجة للمؤثرات الخارجية ، وادركوا كذلك العقبات التي تحول دون تذوق الاساليب العربية ، وضرورة اظهار بلاغة القرآن ، واقناع الاعاجم بها ، للرد على الزنادقة ، فكان من أثر ذلك ان بدأت الابحاث البلاغية تظهر على يد أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ثم الجاحظ وسواهما . ولكن الجهود المبذولة في هذا المضمار لم تثمر ثمرتها المرجوة الا في القرن الخامس الهجري على يد عبد القادر الجرجاني ، صاحب

كتابخانه
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

كتابي « دلائل الاعجاز ، واسرار [illegible]

الشعر :

ساعد تطور الحياة الاجتماعية على تطور الشعر العربي في العهد العباسي وأسهم في تطور هذا الفن ايضا اهتمام الخلفاء واحتفاؤهم بالشعراء ، واقامتهم المواسم السنوية لالقاء القصائد ومنح الجوائز ، وقلدهم في هذا النهج الامراء والولاة .

وقد ادى احتكاك الثقافتين العربية والفارسية الى اتساع آفاق الشعراء العرب ، واكتسابهم الكثير عن الادب الفارسي ، وكان ذلك أما عن طريق درس هذا الادب بصورة مباشرة ، واما عن طريق الاحتكاك بالادباء الفرس ، أو لكون بعض الشعراء في هذا العصر من أصل فارسي .

أما مواضيع الشعر ، فكانت صدى لحياة هذا المجتمع الجديد وتطوراته ، كالعصبية القبلية ، والعنصرية والحزبية . وهنالك عوامل أخرى تركت أثرها في شعر هذا الدور أهمها :

١ ـ الحياة المترفة الماجنة التي كانت ذات أثر بعيد في الناحية الوصفية من الشعر ، وما يرافق هذه الحياة من مجالس شراب ، وغناء ، وجواري ، وقيان .

٢ ـ الثراء الفاحش الذي كان يغرى الشعراء بمدح الخلفاء والولاة والامراء طمعا في عطائهم . وقد أدى ذلك الى ظهور التكلف في الشعر ، وتحوله في كثير منه الى صنعة .

وأشهر شعراء هذا الدور ، بشار بن برد ، وأبو نواس ، وأبو العتاهية ، ومسلم بن الوليد .

النثر :

أما النثر فانه قد تطور أيضا ، بفضل العوامل التي ذكرناها ، وبما ترجم عن الفارسية من آثار أدبية ، وما نقل عن اليونانية من المسائل العقلية المنقطية . وكان لتطور الادارة أثر كبير في تطور النثر . ومن مظاهر ذلك نشوء الاسلوب السهل المرسل ، بعد ان كان الاسلوب المتبع هو أسلوب الايجاز البليغ ، وسبب ذلك ان هذا الاخير لم يعد يفي بمتطلبات الحياة الواسعة الشاملة .

وقد تأثر النثر العربي بالنثر الاجنبي ، ويمثل هذا التأثير الظاهر ابن المقفع ، الذي عاصر المنصور ، والذي يعتبر أمام النثر في زمنه ، وكتابه « كلية ودمنة » خير دليل على التفاعل الثقافي ، بين العرب وسواهم .

ومن كتاب هذا الدور طاهر بن الحسين ، وهو من كتاب المأمون .

وكانت الكتابة على نوعين : الكتابة الادبية ، أو كتابة الترسل ، وهي التي كانت تصدر عن ديوان الرسائل في الدولة ، وتدعى بالرسائل السلطانية ، والرسائل الاخوانية ، التي كانت تتبادل بين الاصدقاء في المناسبات وقد ظهرت أولا في العصر الاموي ، ثم الرسائل الادبية ، وهي التي كان يكتبها البلغاء في الاخبار والسير والقصص ، أو في أي شأن من شؤون الدولة ، أو في النصح والتوجيه والارشاد ، كرسالة الصحابة لابن المقفع ، ورسائل الجاحظ ومؤلفاته الكثيرة كالبخلاء والحيوان والبيان والتبيين .

وهذه الكتابة الادبية ادخلت باديء الامر على دواوين الدولة في أواخر العهد الاموي ، على يد عبد الحميد الكاتب ، ثم انتقلت الى

العصر العباسي ، ونمت ونضجت ونبغ فيها كثيرون ، اشهرهم : يحي بن خالد البغدادي ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد .

وكذلك أدخل في هذا الدور التسجيع في المراسلات ، ثم ادخلت المقامات في أواخر القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمداني ، ثم الحريري .

الخطابة :

أما الخطابة ، فقد كان لها الصدارة في العهد العباسي لانها كانت أحدى الدعائم التي ساعدت على تثبيت حكم العباسيين وسلطانهم . وقد ازدهرت في العصر العباسي الاول ولكنها عادت وتقهقرت بعد ذلك ، واشهر خطباء العهد الاول : السفاح والمنصور والرشيد وجعفر الصادق والنفس الزكية : « محمد بن ابراهيم » .

التاريخ والجغرافيا :

كان العرب الاوائل في الجاهلية يتناقلون الحوادث التاريخية شفاها ، وكذلك الاحداث الطبيعية التي تترك اثرها في الحياة العربية كانهيار سد مأرب ، أو عن القبائل الغابرة كعاد وثمود وسواهما .

وقد كانوا يحيكون حول هذه الحوادث الاساطير والخرافات ، فاذا هي مزيج من الحقيقة والخيال .

وكذلك كان العرب في جاهليتهم يتناقلون الاخبار عن حروبهم وانسابهم ، ويسهم في هذا النقل شعراؤهم . وعندما بزغ فجر الاسلام ظهرت المحاولات لتأريخ السيرة والمغازي ، وظلت الجهود في عصر الخلفاء الراشدين منصبة على هذا الموضوع ، ولم تظهر اية محاولات في تاريخ أعمال الخلفاء الراشدين، وبطولات القواد الذين وجههم لفتح البلاد ، ونشر الدعوة .

وفي العهد الاموي ، بدأ العرب يعنون بتدوين التاريخ على شكل ضيق النطاق ، بطيء الخطى ، ولم ينضج هذا العلم ويتوسع ويثمر الا في العصر العباسي ، حيث ظهرت المؤلفات التاريخية بكثرة، ولعل أهم الدوافع لذلك هي :

١ ـ رغبة العرب في معرفة ما ضيهم وتدوين احداثه .

٢ ـ تاثير شخصية الرسول واهتمام المسلمين باخباره وأحاديثه ، لتكون مرجعهم في تنظيم حياتهم الدينية والمدنية .

٣ ـ الرغبة في تحقيق الانساب ، لان الرغبة في حفظ هذه الانساب وتناقلها والمفاخرة بها قد انتقلت الى العهود الاسلامية ، فأضيفت الى مفاخر الاجداد الجاهليين ، مفاخر اسلامية جديدة سجلها السابقون في الجهاد ، والاستشهاد . وقد قويت هذه الرغبة بعدما فرض عمر بن الخطاب توزيع العطاء وتقسيمه على المسلمين بالنسبة لدرجة قرباهم من النبي أو لسبقهم في الاسلام ، أو لجهادهم تحت رايته .

٤ ـ رغبة بعض الخلفاء في الاطلاع على أخبار الامم الغابرة ، قصد الاقتباس منها ، واستخلاص ما يمكنهم تطبيقه ، والعمل على منواله .

٥ ـ الصراع السياسي بين الاحزاب والفرق المختلفة ، لا سيما بين العرب والعجم ، بعد ان نشأت حركة الشعوبية ، وبدأت كل فئة تعتز وتباهي بمآثرها ،كما كانت الفرق الاسلامية تحرص

على حفظ ذكرها وأعمالها وتاريخها ، لا سيما الشيعة .

٦ ـ الرغبة في فهم الادب العربي القديم .

٧ ـ الرغبة في كسب عطف ملك أو خليفة أو وزير أو أمير ، اذ كان بعض كتاب السيرة يسجلون سيرة سلطان ما ، كما فعل الضبي في كتاب سيرة السلطان محمود الغزنوي .

٨ ـ النزعة النقلية في العلوم العربية التي دفعت العلماء العرب الى الاهتمام بالاسناد ، الامر الذي حملهم على البحث في سير الرجال وتقسيمهم الى طبقات .

٩ ـ نضج الحياة العقلية الادبية ، الذي أدى الى أزدهار العلوم العربية على اختلافها ، ومنها التاريخ الذي أهتم به العرب اهتماما ملحوظا .

الطب :

كان فن الطب شائعا عند الامويين ، وقد اشتهر فيه كثير ، ومعظمهم من الذميين . وكثيرا ما كان الخلفاء يعتمدون على اطبائهم في التخلص من اعدائهم السياسيين .

أما في العصر العباسي ، فقد ازداد هذا العلم وكثر الاطباء ، وزاد أكرام الخلفاء لهم ، والمنصور أول من أدخل اطباء نيسابور الى بغداد . وكان يبالغ في حفاوة طبيبه الخاص جرجس بن بختيشوع ، والرشيد كان يدعو لطبيبه جبرائيل ابن بختيشوع في صلاته ، ويروى ان هذا الطبيب أثرى اثراء فاحشا في عهد الرشيد ، حتى ان ثروته كانت تقدر بنحو ثمان وثمانين مليون درهم . ولما مات سلمويه طبيب المعتصم ، بكاه الخليفة وحضر جنازته .

وعلى الجملة ، فقد ظهرت مواهب الاطباء غنية خصبة خلال العصر العباسي ، واثروا بمؤلفاتهم المكتبة العربية وظلت هذه المؤلفات مصدرا ومرجعا تعتمد عليه الجامعات الاوروبية في تدريس هذه المادة ، ونبغ فيهم أمثال الرازي الذي بحث في الحميات ذات البثور ، كالحصبة والجدري وأمراض الاطفال وعلم التشريح ، وعلي ابن العباس الذي كتب في الطب النظري والطب العملي ، والرئيس ابن سينا الذي ذكر عدوى السل الرئوي وكيفية انتقاله ، ووصف اعراض حصى المثانة وحصى الكلية ، كما ذكر عن تشخيص الامراض العصبية ما يلي : « ان المبادىء التي منها نسير الى معرفة أحوال الدماغ هي من الافعال الحسية ، والافعال الحسية اعني التذكر والتفكير والتصور وقوة الوهم والحدس ، والافعال الحركية ، وهي أفعال القوة المحركة للاعضاء بتوسط العضل ، ومن كبر الرأس وصغره ، ومن جودة شكله ، ومن ثقل الرأس وخفته ، ومن حال لون العين وعروتها ، وسلامتها ومرضها وملمسها ، ومن حال النوم واليقظة ، ومن حال القوى والافعال في الاعضاء المشاركة للدماغ مثل الرحم والمعدة والمثانة » ، كما يوجد لابن سينا بحث مستفيض في البول .

وقد نقلت كتب هذا النطاسي البارع الى أكثر لغات العالم ، وظلت مرجعا عاما للاطباء ، وأساسا للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وايطاليا طوال ستة قرون . ولم ينقطع اطباء جامعة مونبلييه عن شرح نظرياته وتدريس كتبه الا منذ أقل من قرن .

الجراحة :

ان أبا القاسم القرطبي هو أشهر جراحي العرب ، وهو الذي اخترع كثيرا من آلات الجراحة ورسمها في كتبه ، والذي قال فيه العالم الطبيعي الكبير (هلر) : كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر :

أما الآلات الجراحية التي كانت تستخدم في العصر العباسي فهي :

أولا : المبضع : ويستعمل لقطع اللحم عامة ٠

ثانيا : الصنارة : وتستعمل للجذب ٠

ثالثا : المخرط : ويستعمل لقطع اللحم الزائد في الانف ٠

رابعا : المحك ٠ ويستعمل لحك الاجفان ٠

خامسا : المسعط : ويستعمل لتقطير الادهان في الاذن ٠

سادسا : المشرط : ويستعمل لشق الاورام ٠

سابعا : المثقب : ويستعمل لثقب الحصاة وتسليك البول ٠

ثامنا : المكبس : ويستعمل لكبس اللسان بغية رؤية الحلق ٠

الوقاية :

هذا وقد عرف في هذا العصر علم الوقاية فانشئت المصحات واقيمت المرستانات ، وبرع الكثير من اطبائه في الصيدلة وتحضير العقاقير الطبية من اشربة وكحول ومستحلبات ٠ وكان ابن سينا أول من غلف الحبوب ٠ والصيادلة منذ عصر المأمون يخضعون للتفتيش المستمر والمراقبة الشديدة ٠

والكتب التي وضعت في هذا الفن كثيرة ، نذكر منها (الادوية المفردة) للغافقي و (المعنى في الادوية المركبة) لابن البيطار، وكذلك (الجامع لمفردات الادوية والاغذية) الذي حوى أكثر من ألف وأربعمائة علاج بين حيواني ونباتي ٠

الفلك والكيمياء :

لقد برع العرب في الفلك ، فأقاموا المراصد في دمشق وسمرقند والقاهرة وفارس وطليطلة وقرطبة ٠ وتوصلوا الى نتائج علمية لم يتوصل اليها العلم في أوروبا الا بعد الف سنة ، ونبغ منهم في هذا لعلم كثير من أمثال البتاني والمقدوني وابناء موسى بن شاكر والبيروني ٠

تعلم العرب في هذا العصر اللاتينية والاسبانية ونقلوا عنهما ، حتى اذا اشتد عودهم وتمثلوا ما نقلوه ، بدأت شخصيتهم العلمية تظهر وتنمو ٠ ولم يلبثوا كما يقول غوستاف لوبون « ان ادركوا ان التجربة والترصد خير من أفضل الكتب، فانطلقوا من قيود التلمذة لليونان ٠ واخذوا يختبرون مسائل العلم ويجربونها » ٠

قال (دولنبر) صاحب تاريخ علم الفلك : « اذا عددت بين الاغريق راصدين أو ثلاثة ثم نظرت الى العرب ، امكنك ان ترى بينهم عددا كبيرا من الرصاد » ٠

وأما في الكيمياء ، فان خالد بن يزيد الاول المتوفى عام ٨٥ هـ ، هو أول من أدخل الكيمياء ٠ وقد كان للامام جعفر الصادق ألمام في هذا العلم ، وقد علمه لتلميذه جابر بن حيان ٠ ومن أشهر الكيميائيين في العصر العباسي، الكندي والفارابي والزهراوي وابن سينا ٠

ويقول غوستاف لوبون في هذا الصدد : « انك لا تجد عالما يونانيا استند في مباحثه الى التجربة ، مع انك تعد مئات من العرب الذين قامت مباحثهم الكيميائية على التجربة ، فجابر ابن حيان استاذ لـ (لافوازيه) أبي الكيمياء الحديثة » .

الفيزياء :

عرف العرب في هذا العصر الفيزياء والميكانيك ، واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب . واتقنوا فن الدباغة وتسقية الفولاذ ، وثبت علميا انهم هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار .

الرياضيات :

تعلم العرب في العصر العباسي العلوم الرياضية الآتية :

الحساب بقسميه: التحريري الذي تستعمل فيه الادوات الكتابية ، والهوائي أي الذهني . وقد استعمل العرب الصفر والكسور العشرية ، وبحثوا في استخراج المجهولات بطرق مختلفة ، كاستخراجها بالتناسب وبحساب الخطأين وبطريقة التحليل والتعاكس . وهم الذين اخترعوا الجبر . وأول من ألف في هذا العلم الخوارزمي . كما طبق العرب الجبر في علم الهندسة . وبذلك جمعوا بين الهندسة والجبر ، وحتى اعتبروا واضعي الهندسة التحليلية . وألفوا كتبا كثيرة في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية وتقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، وأضافوا الشيء الكثير على المثلثات ، حتى أضحى علما عربيا مستقلا .

الملاحة :

واقتحم العرب البحر فخاضوا عبابه ، واذلوا بأساطيلهم متونه ، واستخدموا في الملاحة البوصلة ، فكانوا بذلك أول من استخدم هذا الاختراع الصيني في أسفارهم .

الجيولوجيا :

وبحثوا في الجيولوجيا وتحولات الكرة الارضية وأعلن ابن سينا ان هذه التحولات انما هي نتيجة بطيئة تمت بتعاقب الدهور . وجاء علم الارض الحديث يثبت صحة هذه النظرية .

علم النبات :

كما بحث علماء العرب النباتات واستخدموا الكثير منها في أغراض طبية ، وانشأوا لها الحدائق وزرعوا فيها اندرها وأجودها .

الفنون الجميلة :

من المعلوم ان فن كل أمة يتأثر بالذوق الخاص الذي يعبر تعبيرا صادقا عن طبيعة هذه الامة وعواطفها وعن المؤثرات والمعتقدات والاوهام والخرافات والتقاليد التي مرت في حياة تلك الامة . كما يتأثر فنها ايضا بما ورثته عن غيرها من الامم السابقة .

والفن العربي قد تأثر بهذين العاملين : تأثر الى حد بعيد بتعاليم الاسلام من حيث اباحتها لبعض الفنون وتحريمها للبعض الآخر ، وكانت له بالتالي صلة قوية بفنون من قبل العرب من الفرس والبيزنطيين ، حتى أن كثيرا من العلماء حينما لاحظوا تلك الصلة زعموا انه ليس للعرب فن مبتكر . والحقيقة ليست كذلك ، لان أية أمة من الامم لا مندوحة لها من اقتباس بعض آثار الامم التي تقدمتها اذا أرادت أن تبلغ ذروة الابداع

الفني ، وفي هذا يقول (باسكال) : انه يجب عد سلسلة الادميين الذين ظهروا بتعاقب القرون انسانا واحدا حيا في كل زمان محصلا للمعارف على الدوام .

أجل لقد استفاد العرب والاغريق والرومان والعبريون والفينيقيون وجميع الامم الغابرة من انتاج من سبقهم ، ولو اقتصر فن كل أمة على ما ابتكرته فقط ، دون الرجوع الى ما قد مضى، لكان الفن ناقصا عند الجميع ففن كل أمة اذا هو استمرار لما تقدم مضاف اليه بعض ما تزيده عليه . وبنسبة ما تكون هذه الزيادة جلية واضحة في فن أمة من الامم ، بنسبة ما يحكم على فنها بكونه مبتكرا أو غير مبتكر .

وان المتأمل بالرقي الفني الذي بلغه العرب في العصر العباسي خاصة ، لا يسعه الا الحكم بأن للعرب فنا مبتكرا ورثته الحضارة من بعدهم، وقلدتهم في أشياء كثيرة منه ، لا تزال آثارها جلية واضحة في كثير من ارجاء المعمورة .

١ ــ الفنون الصناعية :

وقد اتقن العرب من الفنون الجميلة ما يأتي :

وهذه تشتمل على صناعة الخزف والزجاج والصياغة والفسيفساء ، وهي شائعة في كل مكان في دنيا العرب ، وتتجلى في أنفس الادوات واثمنها التي لا تزال حتى اليوم تنسجم مع الذوق العربي، بل ومع غيره من الاذواق .

ليس أدل على ذلك من القصور الفخمة التي بناها الخلفاء والامراء في مدينة بغداد ، حيث كان اثاث هذه القصور المزدان بالرياش والفراش بالغ العظمة .

أما صنع التماثيل وصناعة التصوير فلم يكترث بهما العرب قبل هذا العصر ، وتجاهلوهما تجاهلا كليا في صدر الاسلام ، لان النبي صلى الله عليه وسلم حظر على المسلمين تصوير الالهة وذوات الحياة،وحارب الاصنام والتماثيل،وامعن في محاربتها ، وشنع على عبادها ، وكسر ما كان منها في الكعبة ، كما كره في التصوير والمصورين، الامر الذي حمل المسلمين الاولين على اشباع طبيعتهم الفنية بالالتجاء الى التفنن في الخط بدل التصوير وفي الذكر بدل الرقص ، وفي التجويد لآيات القرآن بدل الغناء . ولما كان الاسلام لم يحظر على المسلمين سوى تصوير الآلهة وذوات الحياة رأينا العرب قد اهتموا بتصوير الحيوان والنبات وصنعوا كثيرا من تماثيل الحيوانات الوهمية،التي صنعت في الواقع لغرض معين لا للفن نفسه ، مما يحملنا على القول بأن النحت والتصوير عند العرب لا يدل على نبوغهم ، نتيجة تأثرهم كما أسلفنا بالاعتقاد الديني الذي يحرمه عليهم ، كما لم يترددوا في وضع صور ذوات الحياة على كثير من الاواني العربية . مثال ذلك : اناء (سان لويس) الذي استخدم زمنا طويلا في تعميد الصبيان في فرنسا والموجود حاليا في متحف « اللوفر » في باريس .

على ان العرب وان لم يبدعوا في فني النحت والتصوير ، فانهم قد ابدعوا كثيرا في الصناعة المعدنية والصياغة وسائر الحرف الاخرى ، وبلغ اتقانهم لبعضها مبلغا يتعذر على ابناء هذا القرن أن يأتوا بأجود منه ان لم أقل بمثله .

فقد كانت آيتهم واسلحتهم مكفتة بالفضة ومموهة بالميناء المفرض ومرصعة بمختلف الاحجار

الثمينة وكان ابداعهم في صنع القطع الجميلة من البلور الفني الموشح بالصور والحكم ما يلفت الانظار ، ويؤيده ذلك الابريق البلوري الموجود في متحف « اللوفر » الى الآن ٠

ومما انتشر عند العرب تطعيم الادوات الاواني المختلفة، مثل الخزفوالقاشاني والنحاس والخشب ، بمواد ثمينة، كالعاج والصدف، وكذلك تكفيت المصنوعات المعدنية ، يدل على ذلك قول السيد (لافوا) : لصناعة التكفيت عند الشرقيين طرق كثيرة ، فالتكفيت يتم بادخال خيوط من الذهب أو الفضة الى فرض محدثة في المعدن بالمنقاش ، واسعة القعر ، ضيقة الوجه ، وتكون تلك الخيوط بارزة أو مسواة على حسب رأي الصائغ ، وتارة تركب كما يفعل في دمشق زهرة دقيقة من الذهب أو الفضة على الفولاذ أو النحاس من بين خطين متوازيين ، فتطرق الاطراف طرقا خفيفا ، فينجم عن ذلك ما يشبه الاطار ، وتارة يمر الصانع ، كما يفعل في القاهرة ،منقاشه المهمازي الشكل بسرعة على المعدن الذي يرغب في زخرفته ، فيركب خيط الفضة بالمدق على تلك الاجزاء المعدنية وكذلك اشتهر العرب بادخال الفسيفساء ـ هذه المادة الثمينة ـ في القصور والمآذن والقباب حتى في التحف الصغيرة كالخنجر والدواة ٠

ولما دخل فيالاسلام عدد كبير من الفرس والروم ، ممن كان لهم ذوق في الفنون ، وامتزج الفن العربي بفنهم ، أدى ذلك الى تطوير الفن الصناعي عندهم ، فقد حوروا الرسوم المحرمة الى رسوم مباحة من هندسية ونباتية ، ونبغوا في فن الزخرفة وادخلوه الى أبنيتهم ، وتفننوا في الكتابة على هامش المصاحف ، واهتموا بتجليده وتحلية الغلاف بالذهب ، وما الى ذلك من ابداع ، نتيجة تعلقهم الشديد بالقرآنوآياته، واحترامهم له ٠ كما تفننوا في تزيين داخل الجوامع بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وخاصة نقش المحاريب بالجص وان لم يكونوا قد بلغوا في هذه الناحية ما بلغه المسيحيون في تزيين كنائسهم ؛ فمن يتدسنى له زيارة المسجد الاقصى في القدس أو الاموي في دمشق ، وعمرو بن العاص في القاهرة ، أو سواها من المساجد الاسلامية في المدن العامرة ، والاطلاع على ما حوته هذه الجوامع من دقة في البناء وعظمة في الزخرف ، لا يتردد في الحكم على الفن العربي بأنه بلغ الذروة من هذه الناحية ٠ ومثل ما يقال عن الجوامع والمحاريب ، يقال ايضا عن المآذن الفخمة والقباب الضخمة والاعمدة الشامخة ، مما يدل على نبوغ العرب في الفن المعماري، وذوقهم الرفيع وتفكيرهم السليم ٠

٢ ـ تخطيط المدن :

كان العرب عند قيامهم ببناء مدينة ما يراعون الوضع الصحي والحربي والجمالي ، فيكثرونمن المنتزهات والحدائقوالبركوالفوارات؛ ويحيطون المدينة بالخنادق والاسوار ٠ وأهم المدن التي بنيت في العهد الاموي : القيروان في أفريقيا ، وقد بناها عقبةبن نافع عام ٥٠هـ ٠ وكانتعاصمة المسلمين في المغرب ، ولا يزال محراب عقبة في مسجدها ، ومأذنة هشام حتى اليوم ٠

وواسط في العراق ، وقد بناها الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان على ضفتي دجلة ليقيم العرب فيها ، ومنهم الشاميون بنوع خاص ٠

كما ابدع العرب في بناء المساجد ومحاريبها وقببها ومآذنها وعقودها ، برعوا في بناء القصور والدور والمدارس والمارستانات والقناطر والجسور والحمامات ، وما تزال المساجد الاسلامية صورة رائعة لتطور الفن العربي ، عهد ذلك ، والحضارة الاسلامية ٠

وأهم مزايا الفن العربي في البناء :

1 ـ القرنصات : وهي تشبه خلايا النحل وتكون في شقوق المباني وواجهات العمارات ٠

ب ـ القبب : ذاعت في العمائر الاسلامية وهي منبسطة الشكل أو بصليته تزين سطوحها بالقاشاني الاخضر ، ومن أجل ذلك سميت الخضراء ، وأشهرها خضراء معاوية في دمشق ، وخضراء الحجاج في واسط ٠

ج ـ شرفات الابنية : وتبنى على شكل اسنان المنشار ٠

د ـ الاقواس : ومنها المدبب ، والمستدير ٠

٣ ـ الموسيقى والغناء وآلات الطرب :

كان للعرب قبل الاسلام أنواع من الغناء ، كاغاني القوافل والاغاني الحربية والدينية والغرامية ،ومنها ما لايزال موجودا في التلبية اثناء الحج ، وفي تجويد القرآن وترتيله ٠ وكان الحداء أقدم أنواع الغناء عند العرب ، وقد شاع الغناء في الحجاز على ثلاثة الحان ٠

١ ـ النصب : وهو غناء القيان والركنان ويقال في المراثي ٠

٢ ـ السنساد : وهو اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبات ٠

٣ ـ الهزج : وهو الخفيف ٠

وعندما انتقلت الخلافة من الحجاز الى الشام اغدق الامويون على الشباب الطامح الى الخلافة الهبات والاموال والعطايا ليشغلوهم عنها ٠ فعكف الشباب على اللهو وانفقوا أموالهم على المغنين والمغنيات ٠ وتوافد الى مجالس الغناء في مكة والمدينة والكثير منهم ، فكا نفي الحجاز ابن سريع والغريض ومعبد وحنين وابن محرز وجميلة وهيفا وطويس ٠ وحبابة وسلامة والزرقاء وابن مسجع ٠

أما أهم آلات الطرب فهي : الدف ، المربع ، القصبة ، والمزمار ، العود ، والناي ٠

بهذا انتشرالغناء الرفيع وازدهرت الموسيقى عند العرب وترقى فن العمارة بشكل مدهش لا تزال شواهده قائمة في بلاد المجد المفقود : في قرطبة واشبيلية والحمراء ٠ ولقد أثرت الفنون العربية لا سيما في العصر العباسي تأثيرا كبيرا في فنون الدول الاوروبية ، وعلى الاخص في فن عمارتها ٠

قال باتيسيه : « انه لا يجوز الشك في أن البنائين الفرنسيين أخذوا عن العرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد ، كثيرا من العناصر المعمارية المهمةوالزخارف الفنيةالجميلة٠ افلم نجد في كاتدرائية بواي التي هي من أهم البنايات النصرانية بابا مستورا بالكتابات العربية ؟ أولم تقم في اربونة وغيرها حصون على حسب الذوق العربي ؟٠ وقد ذكر مسيو لانورمان الذي لم يكن أقل حجة من باتيسيه : « ان تأثير

العرب واضح في كثير من الكنائس الفرنسية ، مثال ذلك كنائس ماغيلون وكانده أغاماش » ٠ وقد تحدث « شار بلان » عما اقتبسه الاوروبيون عن العرب فقال : « أرى من غير مبالغة ، فيما لاحدى الامم من التأثير في أمة أخرى، ان الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه فن العمارة العربي من الشبابيك وشرف المآذن والافاريز ، ادخلوا الى فرنسا المراقب والجوامق والابراج والاطناف ، التي استخدمت في العمارات المدنية والحربية، في القرون الوسطى » ولقد تجلى في اسبانيا على الخصوص تأثير العرب المعماري العظيم ، الذي غفل عنه العلماء الاوروبيون انفسهم ، وقصر « شافوبيه » الذي شيد في القرن الحادي عشر من الميلاد كان على طراز قصر طليطلة العربي ، وقد أمر بأنشائه « لازفونش السادس » بعد ان طرده اخوه والتجأ الى العرب في طليطلة ودرس قصرها وعاد الى مملكته ، واشبيلية حافلة بذكريات العرب ، فلا تزال بيوتها تبنى على الطراز العربي ، ولا يزال الرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية ٠

وخلاصة القول ان تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية كان عظيما وجليلا ٠ فالعرب هم الذين أبدعوا في جميع العلوم والفنون ابداعا مختلفا كثيرا عن الحضارات التي عرفتها البشرية عند الامم الغابرة وهم الذين فتحوا لاوروبا أبواب المعرفة من علمية وأدبية وفلسفية وظلوا اساتذة لها مدة ستة قرون وكانت حضارتهم خير نواة للحضارة الغربية الحديثة ٠

ولعل خير ما اختم به هذا البحث كلمة « سبنسر » الآتية :

« لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ أسما عربيا ٠ ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسا عربيا ٠ ولا يقدر أي قاض أن يبت اليوم في اختلاف دون أن يستدعي مبدأ املته العرب ٠ ولا يستطيع أي طبيب أن يتلمس دائرة احد الامراض المعروفة منذ القدم دون ان يهمس بآراء طبيب عربي » ٠

●